مجلة علوم التربية

دورية مغربية متخصصة

ملف خاص:

المخطط الاستعجالي للتربية والتكوين (2011-2009)

العدد الثاني والأربعون- يناير 2010

في المنهجية الظاهراتية وخطوات تطبيقها على الظواهر التربوية

د. عبد الجليل أميم[1]

هدف هذه المحاولة هو شد انتباه التربويين إلى ضرورة الاستفادة من مناهج البحث الفلسفي في صيغتها الإجرائية في تناولهم للقضايا التربوية المختلفة. ولقد قدمنا لهذه المحاولة بمدخل تعريفي للمنهج الفنومنولوجي ومصطلحاته المركزية ثم انتقلنا للخطوات الواجب اتباعها لأنجاز بحث من هذا النوع مرتبطين أساسا بماهو تربوي.

1- أساسيات الفنومنولوجيا

بالرجوع إلى الدلالة اللغوية لمصطلح الفنومنولوجيا أو ما يسمى في الدراسات العربية بالظاهراتية يمكن قول ما يلي[2]:

الأصل اللاتني لمصطلح Phänomenologie يعني: دراسة الظواهر. بناء على المدلول اللغوي. هذه الدلالة الإيتمولوجية تساعدنا لامحالة في فهمنا الأولي للمراد بالمصطلح أعلاه. ولو تعمقنا أكثر لوجدنا أن مصطلح الظاهرة Phänomo يتجاوز مفهوم الظاهرة إلى الدلالة على الشيئ البين الظاهر أمامنا، وفي أحد معانيه يتضمن بعدا آخر مفاده الشيئ الذي يحتوي أو يتضمن نورا بداخله Phos،[3] ولكن أيضا الشيء الذي يظهر(بضم الياء) نفسه بنفسه، فهو حامل لإشعاع داخي يمكنه من إظهار نفسه. و لو أدرجنا القاعدة الفنومنولوجية

Zu den Sachen selbst والتي يمكن ترجمتها ب: إلى الأشياء في ذاتها، لأحالنا ذلك على مايلي:

في المنهجية الفنومنولوجية يتعلق الأمر بالنظر في الظواهر ذاتها كظواهر مستقلة في وجودها، تحمل

خصائصها في ذاتها، وهذا يعني بالنسبة للمنهجية الفنومنولوجية إبعاد كل ماهو خارج عن الظواهر حين النظر فيها. أي النظر إلى الظاهرة كيف تقدم هي نفسها بنفسها أمامنا. فلا يتعلق الأمر منهجيا بمعرفة عن الظاهرة ولكن بمعرفة الظاهرة كظاهرة تبرز أمامنا و نستوعبها مستقلة لا أن نستوعب شيئا عنها، والفرق بين الفهمين عميق ومركزي في بعده المنهجي. وسنأتي لتفصيل ذلك حين الوقوف عند أهم مبادئ المنهج الفنومنولوجي. وقبل ذلك قد يتبادر سؤال إلى الذهن مفاده: أية ظواهر يمكن أن تكون محل النظر المنهجي الفنومنولوجي؟ ببساطة كل ما يظهر أمامك. وبساطة الجواب تحيل على تعقيد لا يمكن أن نمر عليه بمثل هذا التجاوز المخل في الشرح. فلا يجب أن يقودنا الجواب إلى الاعتقاد بأن الأمر يتعلق فقط بكل ماهو طبيعي أي ملموس، ظاهر للعيان، مرئي. ذلك أن مصطلح الظاهرة يرتبط في الاستعمالات اليومية والعلمية بالظواهر الطبيعية من مثل الزلازل، والأمطار، والبراكين، والفياضانات، والخسوف، والكسوف ...، أما بالنسبة للفنومنولوجيا فالظواهر تتجاوز ذلك إلى مالا يظهر للعيان كالمرض مثلا، ولكن تظهر عوارضه وعلاماته من مثل ارتفاع درجة الحرارة أو الإسهال أو تغير في اللون.

سنرجع للتفصيل في ذلك لاحقا، أما الآن فنلتزم منهجيا بالوقوف على المراحل الثلاثة أو بالأحرى الأجيال الثلاثة التي ساهمت في تطور المنهج الفنومنولوجي.

بداية وجب التأكيد على أن المنهجية الفنومنولوجية غزت كل الحقول المعرفية خصوصا ما يهمنا في هذه المحاولة أي حقول العلوم الانسانية المتنوعة. وأجيالها الثلاثة يمكن ترتيبها على المنوال التالي:

الجيل الاول:

Phänder (1870-1941)

Scheler (1874-1928)

Husserl(1859-1938)

Dilthey (1833-1911)

Heidegger(1889-1976)

الجيل الثاني:

A. Schuetz (1899-1959)

Merleau-Ponty (1908-1961)

Lochner (1885-1978)

G. H .Mead (1863-1931)

Bollnow (1903-1991)

A. Fischer (1880-1937)

Th. P. Wilson

Ballauff (1911-1995)

P. Petersen und Else Petersen (1884-1952)

Blumer (1900 geb)

Langeveld (1905-1989)

Habermas (1929 geb)

Mollenhauer (1928-1998)

Berger (1929geb)

Luckmann(1927 geb)

Loch (1928 geb)

Schaller (1925 geb)

الجيل الثالث:

Winnefeld (1911-1968)

Waldenfels (1934 geb)

Beekmann

Lppitz (1945 geb)

Meyer – Drawe

هذا الترتيب يختص أساسا وفي أغلبه بالرقعة الجرمانية، ويتضمن حقولا معرفية مختلفة، وإن كان مجال الفلسفة يجمعها، ومجال فلسفة التربية يهيمن عليها.

ولن نبحث عن الأسس المنهجية للفنومنولوجيا إلا عند Husserl الذي وضع لبناتها الأولى والأساسية بالرغم من بعض التعديلات التي أتى بها من بعده والتي لم تغير في جوهر المنهجية الشئ الكثير.

لقد وضع Husserl أساسيات الفنومنولوجيا في مؤلفه:

Ideen zu einer reinen Phänomenologie und phänomenologischen Philosophie

أفكار في فنومنولوجيا خالصة وفلسفة فنومنولوجية

يقول Husserl مايلي:

« ...In dieser Weiser finde ich mich im wachen Bewusstsein, allzeit und ohne es je ändern zu können, in Beziehung auf die eine und selbe, obschon de, inhaltlichen Bestand nach Wechselnde Welt. Sie ist immer fort für mich ´vorhanden´, und ich selbst bin ihr Mitglied.

Dabei ist diese Welt für mich nicht da als eine bloße Sachenwelt, sondern in derselben Unmittelbarkeit als Wertewelt,Gueterwelt, praktische Welt. Ohne Weiters finde ich die Dinge vor mir ausgestattet, wie mit Sachbeschaffenheiten, so mit Wertcharackteren, als schön und hässlich, als gefällig und missfällig, als angenehm und unangenehm und dgl...Dasselbe gilt natürlich ebensowohl....auch für Menschen und Tiere meiner Umgebung hinsichtlich ihres sozialen Charakters. Sie sind meine ‚Freunde' oder ‚Feinde', meine ‚Diener' oder ‚Vorgesetzte', ‚Fremde' oder ‚Verwandte' usw . »[4]

إجمال ما تحدث عنه هوسرل في هذه المقولة يمكن تلخيصه في مايلي:

- إن وعينا في علاقة دائمة بالعالم
- إن العالم موجود دائما وأبدا ونحن منه أي نحن من العناصر المكونة له
- العالم الذي أمامنا ليس فقط عالما من الاشياء بل كذلك عالما من القيم
- كل مكونات العالم المعيش طبيعية كانت أو اجتماعية، أو قيمية هي بالنسبة لنا بديهية أي واضحة بذاتها، و كذا معتادة لانها من الحياة اليومية.

الميزتان الأساسيتان للعالم المعيش هو كونه بديهي وواضح بذاته، وكذا يومي ومعتاد لنا، وهذا بالضبط ما يجب تجاوزه، أي اعتيادنا وبديهية الأمور أمامنا قصد الوصول إلى ماهية العالم الحقيقية، والتي لن تتأت إلا بتجاوز المحسوس البين من الظواهر، أي تجاوز التجربة اليومية إلى التأمل الفلسفي العميق، هذا المنظور له تأثير مباشر على مفهوم الفلسفة من جهة وكذا مفهوم العلم من جهة ثانية. ذلك أن منطلق العلم هو تجربة العالم المعيش، ومن تم فإن أدواته ومناهجه عليها أن تتلاءم مع أشياء هذا العالم وتمظهراتها وأشكال وجودها، بل عليها أن تتجاوز ذلك لتعرية بنياتها والنظر فيها. وما دامت المعرفة العلمية هي جهد الباحث كفرد، وإنتاجه كمكون من مكونات العالم المعيش، فإنه من المهم بل من الأساسي فنومنولوجيا النظر في كيفية اسبتطان وعي الباحث للظواهر محل البحث، لإن المعرفة هي مجمل ما كونه وعي الباحث حول ظاهرة ما في العالم المعيش وبشكل قصدي. فوعينا ينقاد الى الظاهرة بشكل قصدي يقوده في ذلك تراكم ما استدخله الباحث حول هذه الظاهرة في الوجود على مدار وسيرورة حياته. وهنا وصلنا إلى أهم مصطلح في الجهاز المفاهمي لفنمنولوجيا هوسرل: أي الوعي أو بالضبط ما يصطلح عليه ب قصدية الوعي.
Intentionalität des Bewusstseins

يدور معنى هذا المفهوم حول لطيفة مفادها أن وعينا دائما يتوجه إلى شيئ ما كوعي بشيئ ما. هذا الامر يتجلى بوضوح عند ملاحظتنا لاية ظاهرة. فرؤيتنا اليومية للأشخاص والاشياء تتم بناء على موقف سابق لا يتم التساؤل حول كيفية انبناءه ولا عن معناه، مع العلم أن هذا المعنى ليس إلا ما ألصقناه به نحن. يجرنا هذا إلى القول بأن هذا الاستيعاب اليومي للظواهر حكم قبلي عليها، وتم جب فنومنولوجيا الوقوف عليه ومعه

وتجريد وعينا منه. وهذا ينقلنا بالضبط إلى الغرض الاساسي من هذه المحاولة وهو: كيف نشتغل بالمنهج الفنمنولوجي؟ وبالضبط ما هي مراحل البحث الفنومنولوجي؟

ستكون إجابتنا مركزة وإجرائية أكثر منها نظرية وفلسفية باعتبارهم التقنيات الإجرائية الذي يقود كل محاولاتنا في البحث المنهجي.

2- الخطوات المنهجية

بداية أود الاشارة إلى أن هذه الخطوات تراتبية، فكل خطوة بحثية تمثل مستوى أعمق من سابقتها وهي كالتالي:

- الخطوة الاولى: من العالم النظري إلى الموقف الطبيعي: التوقف الاول: epoché

von der theoretischen Welt zur natuerlichen Einstellung

لإجراء بحث فنومنولوجي وجب الانطلاق حسب هوسرل من ما سماه بالانتقال بالوعي من العالم النظري إلى العالم المعيش. والمقصود بالعالم النظري ذاك العالم الذي استقينا منه آراءنا وأفكارنا حول الظاهرة محل الدراسة، سواء أكانت آراء إيديولوجية أو تراثية أو دينية أو حتى أراء من نظريات علمية. ذلك أن هذا العالم النظري هو بمصطلح هوسرل Verfaelchte Welt أي عالم مزيف، أو Welt Konstruierte أي عالمم مصطنع، ولا يتمثل الوعي فيه الظاهرة على حقيقتها، بل هو تمثل عن الظاهرة. ومن تم وجب كخطوة أولى القيام بعملية توقيف مقصودة لسيرورة الوعي، أي ما يسميه هوسرل ب epoché أي anhalten،[5] هذا التوقف يهدف إلى الإرتقاء بالوعي من المستوى النظري المبني على ما استدخله الباحث في تنشئته عن الظاهرة إلى المستوى الطبيعي، أي القيام بما يسميه هوسرل بالتقليص أو الإختزال Reduktion، وهو عملية واعية يقوم من خلالها الباحث باستبعاد المؤثرات النظرية عن وعيه بالظاهرة، أي تقليص درجة تأثير العالم النظري في الفعل العلمي للباحث، ذلك أن الفنومنولوجيا تريد أن تعالج الظواهر كما هي في استقلال تام أو تخلص تام من الأحكام القبلية. فالفنمنولوجي يريد الرجوع بوعيه إلى أصله النقي النظيف المتخلص من شوائب العالم النظري الموجه والمولد لكل عملية تزييف للوعي. وهنا يتم تطوير ما سماه هوسرل بالموقف أو التصور الطبيعي للظاهرة natuerliche Einstellung لدى الباحث. هذه العملية ذات طبيعة جدلية غدوا ورواحا بين الظاهرة ووعي الباحث بها. وعملية البحث في الظاهرة تسير بطريقة وصفية متأنية وواضحة ومفهومة. وهي مرحلة تقريب الوعي من الظاهرة محل البحث تبغي النظر في مدى توافق الظاهرة في ظهورها الطبيعي مع وعي الباحث بها، أي الوعي الذي يستبطنه، ويوجه سلوكه، ويحدد مواقفه من الظاهرة. الهدف إذا هو الوصول بالوعي بالظاهرة إلى مرحلة يراها فيها الباحث كما هي في أصلها الطبيعي على حقيقتها، أي ايصال الوعي أولا إلى أن يصبح وعيا بالظاهرة كما هي، وثانيا الدفع به الى فرز العناصر التي شكلت سابقا

مواقفه ونظره القبلي. على الوعي أن يصل في مرحلة الإختزال أو التقليص الأولي إلى عزل ما لا ينتمي للظاهرة في جوهرها.

ولنضرب لذلك مثالا حتى يتضح المقال، ونحقق المبتغى من هذه المحاولة التي هدفها بالأساس ملامسة المنهجية الفنومنولوجية في بعدها الإجرائي لا النظري الفلسفي، وإن كان بين الإثنين على رأي الاصوليين خصوص وعموم.

باحث يريد دراسة ظاهرة الهدر المدرسي أي انقطاع التلاميذ عن التعليم وعدم إكمال تكوينهم.

تقتضي المرحلة الفنومنولوجية الأولى أي ما سماه هوسرل ب epoché أن يتوقف الباحث بداية مع وعيه بهذه الظاهرة، أي عليه أن يبدأ بتخليص وعيه من كل ما اكتسبه من معارف نظرية حول الظاهرة محل البحث، أي كل ما قرأه وسمعه أو اعتقده في يوم من الايام. عليه أن يفرق بين معرفة الظاهرة والمعرفة عن الظاهرة ، والتي تكون معرفة مزيفة. إذا فلمعرفة حقيقة ظاهرة الهدر المدرسي على الباحث تنقية وعيه مما لصق به من شوائب نظرية للوصول بهذا الوعي إلى مرحلة الموقف الطبيعي والذي يرتقي به الباحث الى مرحلة تمايز في وعيه بين الظاهرة من جهة والمعرفة النظرية حول الظاهرة من جهة ثانية. وهذا الأمر يجب أن يتحقق في هذه المرحلة للإنتقال إلى مستوى آخر من الوعي بالظاهرة وهو محور النقطة الموالية.

- الخطوة الثانية: من الموقف الطبيعي إلى الإختزال الفنومنولوجي:

Von der natuerlichen zur phaenomenologischen Reduktion

هذه الخطوة هي كذلك ممارسة قصدية باتجاه الصعود في مدارج الوعي الطاهر النظيف إن صح التعبير بتوظيف ألية التقليص والإختزال ولكن في مستوى آخر. إنها مرحلة يتوجه فيها الباحث للموقف الطبيعي الذي وصل إليه من خلال توقفه الأول مع وعيه النظري ليمارس فيه هدما وتشطيبا، أو لنقل اختزالا من نوع خاص. الهدف هو إزالة خاصية السذاجة التي تلتصق بما هو طبيعي، وهذا يتطلب عملية الإبقاء على مسافة بين الباحث وموضوع بحثه، وكذا مراقبة الذات في كيفية تعاملها مع موضوعها، إنها عملية متابعة الوعي ومراقة أشكال تعامله مع الظاهرة، إن الباحث يجعل نفسه أثناء سيرورة البحث محل البحث، إنه يراقب قصدية وعيه إلى أين تتجه. إنه يعمد إلى تحليل مواقفه، وافعاله، وتصوراته، حول الظاهرة التي يتناولها بالدراسة والنظر، يتساءل: كيف كان تعامله أثناء وبعد تناوله للظاهرة ؟ كيف كان يتصرف ؟ كيف كانت سيرورة فكره؟ أين حافظ على مسافة بينه وبين الظاهرة؟ اين خلط بينه وبين الظاهرة؟ ما هي الافكار أو الأشياء أو الأشخاص التي جعلته يتصرف بهذا الشكل الغير العلمي ؟ إنها عملية ممارسة للنقد الذاتي أثناء وبعد سيرورة البحث. كل هذا يجب أن يصوغه فكريا ولغويا بدقة متناهية، وهذا مستوى آخر من الإختزال مس بالأخص وعي الباحث أثناء وبعد البحث، بعد ما خضع هذا الوعي إلى تقليص أولي هم عالمه النظري. بهذه الطريقة نصل حسب هوسرل إلى ما أسماه بالموقف الفنومنولوجي أو الإختزال الفنومنولوجي.

ولنضرب لذلك مثالا غير متجاوزين المثال الذي بسطناه في المرحلة السابقة.

لقد حاول باحثنا أن يخلص وعيه في المرحلة الأولى مما علق به من أحكام قبلية عن الهدر المدرسي ناتجة عن العالم النظري، ووصل بجهد جهيد مع وعيه إلى تنقيته بالغا به مستوى التصور الطبيعي، أي أن يرى الظاهرة في ماهيتها الطبيعية، وجاءت المرحلة الثانية التي تقضي بأن يبقي الباحث مسافة بينه وبين ظاهرة الهدر المدرسي وذلك بإخضاع وعيه لمراقبة مستمرة ومتيقظة. وهب أنه أثناء تناوله لظاهرة الهدر المدرسي لاحظ أنه أثناء معالجته لهذا الموضوع تجنب الحديث عن دور الأستاذ في عملية الهدر، أو أومأ لذلك بطريقة عرضية لا تفي بالغرض، إما ليتجنب المس بشخصية الأساتذة وهو واحد منهم، أو ليتجنب انتقادات زملاءه في المهنة أو ما إلى ذلك من الاسباب. بعد ذلك أعاد مراجعة ما كتب، ووقف موقف المنتقد لوعيه وجرده من التزييف الذي وقع فيه، وتناول دور الاستاذ في ظاهرة الهدر. إن هذه الإختزال من هذا المستوى هو الإختزال أو التقليص الفنومنولوجي، أي ممارسة المراقبة وتعديل المسار في البحث حين يكتشف الباحث أن الوعي يمارس تزيفا تنكيسيا يبغي إلصاق ما لا ينتمي للظاهرة بالظاهرة، أو إبعاد ما يشكل جزءا من الظاهرة عنها.

- المرحلة الثالثة : من الإختزال الفنومنولوجي إلى أنكشاف الجوهر :

Von der pänomenologischen Reduktion zur Wesensschau

بالإلتجاء إلى ما سماه هوسرل ب eiditische Reduktion والتي تعني Eidos أي Gestalt أي جشطالت (الشكل ـ الهيئة ـ الظاهر ـ الصورة) يريد من الباحث أن يرتقي مرة أخرى بوعيه القصدي في سلم التعالي إلى مرحلة الاختزال أو التقليص الكلي قصد الوصول الى إدراك ماهية الظاهرة محل البحث، وكذا التحكم في الوعي بدرجة يطوق من خلالها المواقف السابقة ويتجاوزها وتصبح الظاهرة بينة واضحة في الإدراك وكأن الباحث يراها رأي العين. إن الوعي أصبح حقا ينظر إليها على أنها بالفعل ظاهرة Phänomen . يتعلق الأمر إذا باختزال يريد من خلاله هوسرل الوصول إلى جوهر الظاهرة Wesen . فهوسرل يتحدث في هذا الإطار عن جهد حدسي أنعكاسي جهيد. إن الإختزال الكلي ينطلق بالأساس من الحدس أولا وأخيرا، ويراقب ويحلل بعمق حركية الظاهرة في أشكال بروزها المختلفة ليصل في الاخير إلى التميز فيها بين الثابت والمتغير، فالثابت فيها هو جوهرها بالأساس6، أما ما دون ذلك فهو متعلق بها أو عالق فيها.

ولتوضيح ذلك يمكن إيراد المثال التالي والذي هو تعميق للمثال الذي درجنا على طرحه.

بينما جمع الباحث معلومات كثيرة من خلال مراقبته للظاهرة في حركيتها، اتضح له أن هناك خصائص معينة أو معلومات أو أفكار أو غير ذلك تعيد نفسها، وتظهر دائما وأبدا كلما قلب الظاهرة من جوانبها المختلفة، هذا الظهور الدائم لهذه العناصر لا يتغير لا بتغير الزمان، ولا المكان، ولا الحال، مما يدل على أن هذه العناصر تشكل جوهر الظاهرة ومدارها ولحمتها وسداها أي أنها Das Wesen جوهرها، أما

مادونها فهو متغير. فلو تناول باحثنا السابق ظاهرة الهدر المدرسي في أشكال بروزها، وتابع أسبابها، وقلبها من جوابها المختلفة، وراقب الحالات الواقعية الممسوسة بالهدر، ووصفها وصفا دقيقا، وجمع معلومات ونصوص حولها في أبعادها المختلفة، ووجد من خلال ذلك كله مثلا أن ماهيتها تتجلى في كون الذين أهدروا أو يهدرون فرص الدراسة كان دافعهم هو العوز المادي، يكون بذلك الفقر هو جوهر Das Wesen الهدر المدرسي، ذلك أن ظاهرة الهدر ترتبط عند باحثنا بالفقر المادي أما العناصر الاخرى فهي تابعة للفقر بالأساس ومتغيرة. فالثابث هو الفقر أما ما دون ذلك فهو متغير.

للتوضيح أكثر أورد مثالا أدرجه Lamnek أثناء شرحه للمنهج الفنومنولوجي أراه أوضح وأسلم، يقول فيه ما يلي[7]:

إذا أراد باحث ما الوصول إلى جوهر Kraftfahrzeug أي العربة ذات المحرك، وقد نقول تجاوزا القاطرة (أي كل ألة متحركة تحتوي على محرك: كالسيارة، الشاحنة، ...)، فعليه بداية أن يخلص وعيه من أشكالها المختلفة كالسيارة بأربع عجلات، أو بثلاث عجلات، أو أنواعها من مثل سيارة إسعاف أو سيارة الشرطة أو الشاحنات والباصات...وكذا التخلص من أنواع السيارات المخصصة للعب سواء للكبار والصغار،

وإذا ما قارن بين هذه الاشكال والانواع سيجد أن بينها شيئ جامع وهو جوهرها، واشياء متغيرة هي أشكالها وألوانها وأنواعها، فجوهرها هو المحرك أما ما دون ذلك فتابع له.

من طبيعة الحال لا يتجلى الجوهر فقط في الاشياء الملموسة، ولكن كذلك في الشخصية الانسانية مثلا، وذلك من خلال أفعالها العارضة والثابثة، و كذا أشكال التفكير، فكل شخصية لها جوهر ثابت تتميز به عن غيرها، كما أن لها خصائص تشترك فيها مع الآخرين.

في هذه المرحلة بالذات يتوقف الباحثون في العلوم الانسانية مع الفنومنولوجيا، ويعتبرون الخطوة التالية فلسفية يصعب العمل بها أو الالتجاء إليها في البحث العلمي، هذه الخطوة هي موضوع النقطة الموالية في هذه المحاولة.

- الخطوة الرابعة: الإختزال أو التقليص المتعالي: transzendentale Reduktion

عند انكشاف جوهر الظاهرة محل البحث يتم تجاوز الجزئيات والخصوصيات والانتقال بالوعي عن طريق ما سماه هوسرل ب الإختزال المتعالي transzendentale Reduktion، و الهدف منها هو الوصول إلى الوعي المتعالي، وهو أعلى مراحل التجريد في الفنومنولوجيا، وقد نسميه الوعي المطلق الخالص، إنها محاولة على رأي Lamnek لإرجاع الوعي إلى مرحلة سابقة على ظهور الأنا، والتي تتموقع زمانيا قبل ظهور الوعي في علم النفس، إنها مستوى من التجريد يصل فيه الباحث إلى مستوى يصبح فيه متفرجا وغير مشارك في الظاهرة، لنقل بلغتنا : إنها المرحلة التي ينظر فيها الباحث في الظاهرة محل البحث نظرة يستقل فيها بنفسه

استقلالا تاما كليا مطلقا ومتعاليا عن كل تأثير قد يطاله من الظاهرة نفسها، إن باحثنا وصل الى مرحلة الذات المتعاليةTranszendentale Subjektivität .

هنا يمكن لمن يشتغل بمشاكل المنهج، والبحث وإشكالياته، والفلسفة الفنومنولوجية أن يستفيد من الظاهراتية. إن الخطوة الرابعة تذهب إلى التأسيس لفلسفة الفنومنولوجيا بالاساس، وهذا هو الخط الذي يتوقف عنده من يريد أن يشتغل بالمنهج الفنومنولوجي في العلوم الانسانية.

بقي أن نوضح أن الفنومنولوجيا تعتمد على تقنية الوصف بالاساس قبل أي شيئ آخر و Heidegger يتحدث عن الوصف الفنومنولوجي قائلا:

« Bei phänomenologischen Beschreiben handelt es sich um einen bestimmten Denkvorgang, der sich vom Verstehen und vom Erklären unterscheidet, indem er sich des interpretierenden und zurückführenden Zugriff enthält. Sein Sinn liegt darin, das was sich zeigt, so wie es sich von ihm selbst her zeigt, von ihm selbst her sehen lassen"[8].

الوصف الفنومنولوجي كطريقة تفكير يختلف عن الفهم الهرمنوطيقي، وكذا عن التفسير العلمي. ذلك أنه يسعى إلى رؤية الظاهرة كما تظهر (بضم التاء وكسر الهاء) هي نفسها بنفسها. لا يسعى لفهمها، ولا لإعطاء تفسير لها، ولا الحكم عليها، لأن المنهج الفينومينولوجي لا يهمه الحكم في ذاته، بل يهمه كيف استطاع الباحث أن يصل إلى ماهية وكنه الظاهرة محل الدراسة.

إن المعرفة الحقيقية للموضوع المبحوث لا تتأتى بمحاولة تحليله كما يظهر خارج الذات فقط، وإنما بتحليل الذات، أي الوعي في سيرورته وهو يقوم بالتعرف على العالم، أي بتحليل الوعي وقد استبطن الأشياء فتحولت إلى ظواهر، لأن الوعي لا يكون مستقلاً وإنما هو دائماً وعي بشيء ما، غير أنه من الضروري تجريد الوعي من أية تصورات قبلية نظرية، وعلى رأي هوسرل تجب محاصرة العالم النظري والتحكم فيه أثناء تناول الظاهرة، و إخضاع أية تصورات أو فرضيات للمساءلة الدائمة في كل مراحل المنهجية الفنومنولوجية.

3- توجيهات في مسار البحث الفنومنولوجي

يؤكدGadamer [9] على أن السمة الغالبة للمنهج الفنومنولوجي هي التعدد. فليست هناك منهجية موحدة يمكن ادعاؤها، فكل باحث حسب تجربته مع المنهج والمناهج، وكذا حسب قدرته المعرفية وإمكاناته المنهجية وجهده الخاص، يشق لنفسه مسارا فنومنولوجيا خاصا، وهذا لا يعني أنه لا توجد قواعد أساسية على الباحث أن يلتزم بها إن أراد أن ينجز بحثا فنومنولوجيا مركزا، وهي خطوات بقدر ما تمرن عليها الباحث اكتسب كفاية توظيفها وسار بإمكانه أيضا تعميقها. ويمكن سردها كما يلي:

1. حدد ميلك وهدفك المعرفي المركزي الذي تريد معالجته: ماهي الظاهرة التي تريد تناولها بالبحث
2. صغ موضوع البحث صياغة واضحة
3. دقق في المصطلحات التي تستعملها لتسمية الظاهرة محل البحث
4. ارجع إلى تاريخها وتاريخ ظهورها والتسميات التي أطلقت عليها
5. فرق في تناولك للظاهرة بين ما وجدته من معارف نظرية وبين الظاهرة محل البحث، فتلك معارف حول الظاهرة وليست الظاهرة نفسها
6. انزل إلى الواقع وعاين الظاهرة كيف تظهر نفسها بنفسها
7. صف الظاهرة كما هي ودقق كثيرا في الجزئيات وسجلها
8. ميز بين الظاهرة محل الدراسة وغيرها من الظواهر المشابهة لها. والتمييز يكون منهجيا بتوظيف المنهج المقارن. ولك في هذا الباب مخرجين : أن تميز الظاهرة عن غيرها من الظواهر أو العكس أي أن تميز هذه الظواهر عن الظاهرة محل الدراسة: وللمقارنة عليك أن تبحث في ما يلي:
   - مميزات الظاهرة
   - مواطن التشابه
   - مواطن الإختلاف
9. حدد بعد اطلاعك على المعارف النظرية المختلفة حول الظاهرة وكذا نزولك للواقع، العناصر التي تظهر لك في كل مرة، أي تلك التي تتكرر بعد كل نظر، وفرق بينها وبين تلك التي تظهر هنا وتختفي هناك
10. الثابت من العناصر المستخرجة يشكل بنية موضوع البحث وبالتعبير الفنومنولوجي هويته أو ماهيته: إن ما تبقى هو الظاهرة.

في ما يخص الملاحظة التي تعتبر منطلق وأساس عملية الوصف و المقارنة يحدد Diemer[10] شروطها كالتالي:

- النظر والوصف البسيط للظاهرة
- النظر فقط للظاهرة ووصفها هي
- النظر والوصف الغير المتحيز ما أمكن
- النظر والوصف الدقيق
- النظر والوصف الكامل او التام

- التحرك فقط ضمن مكونات الظاهرة لا غير

تلك كانت محاولة لبسط مقومات المنهج الفنومنولوجي بالاعتماد أساسا على أهل التخصص المنهجي في الرقعة الجرمانية، وكان جوهر هذه المحاولة هو بعدها الاجرائي مكتفيين في البعد النظري بما يفي بغرض التوضيح والبيان لكي لا نصرف عن أولويتنا المركزية وهي ملامسة الخطوات المنهجية الإجرائية للإستفادة منها والعمل بها ومد الباحثين بمفاتيحها.

لائحة المراجع

Danner, Helmut.: Methoden geisteswissenschaftlicher Paedagogik. Aufl. Muenchen-Basel 1994.

- Gadamer , H.G : Die phaenomenologische Bewegung Phil. Rundschau 11, 1\2, 1-45, 1963\64

-Kron, W F: Wssenschaftstheorie für Pädagogen. Muenchen-Basel 1999. S 193.

-Lamnek , Siegfried: Qualitative Sozialforschung 4Aufl. Weinheim, Basel 2005.

الهوامش

2 ـ أورد كحاشية سفلية من باب تعميم الاستفادة مجمل ما ذكره الباحث محسن الزراعي من دراسات تناولت الفنومنولوجيا بالدرس والتحليل والترجمة في مقال له على شبكة الانترنيت، مع الاعتذار للقراء وكذا للباحث عن عدم إدراج عنوان الموقع نظرا لضياعه مني، كما أشير إلى أن آخر تحيين له كان في 14 ـ 11 ـ 2007 وهو كما هو بدون تصرف كالتالي:

إنّ الاهتمام بهوسّرل في الفكر العربي بدأ حسب علمنا منذ الخمسينيّات، فقد ظهرت سنة1958 أوّل ترجمة لنصوص هوسّرل قدّمها تيسير شيخ الأرض بعنوان: «تأمّلات ديكارتيّة أو المدخل إلى الفينومينولوجيا»، دار بيروت للطّباعة والنّشر، بيروت،1958، وقد أرفق المترجم ذلك النّص بمقدّمة مطوّلة عرّف فيها بهوسّرل وبأهمّ أفكاره الفينومينولوجيّة(أنظر نفس المرجع، ص.ص.38-3). كما ترجم سنة 1959 كتاب لإميل برييه تضمّن بعض التحديدات لأفكار هوسّرل، وهو بعنوان: «اتّجاهات الفلسفة المعاصرة»، ترجمة محمود قاسم، دار الكشّاف للنّشر والطّباعة والتوزيع، بيروت 1959. ثمّ ظهرت في الستينيات بعض المقالات والترجمات في السّياق ذاته نذكر منها على سبيل المثال من بين الترجمات: إعادة ترجمة نصّ هوسّرل «التأمّلات الدّيكارتيّة» من قبل نازلي اسماعيل حسين بعنوان: «تأمّلات ديكارتيّة المدخل إلى الظّاهراتيّة»، دار المعارف ودار الكتاب العربيّ للطّباعة والنّشر، القاهرة، 1969، وترجمة بعض الأعمال الغربيّة التي تتضمّن أقسام أو تحليلات مباشرة للفكر الهوسّرلي مثل: ترجمة بعض أعمال سارتر وأهمّها: «الوجود والعدم بحث في الأنطولوجيا الظّاهراتيّة»، ترجمة عبد الرّحمان بدوي، منشورات دار الآداب، بيروت، 1966، وترجمة كتاب لريجيس جوليفيه بعنوان: «المذاهب الوجوديّة من كيركجورد إلى جان بول سارتر»، ترجمة فؤاد كامل، الدّار المصريّة للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966، وقد تضمّن في آخره ملحقا قدّم فيه الكاتب بعض عناصر المنهج الفينومينولوجيّ الهوسّرلي. أمّا الدّراسات والبحوث فنذكر مثلا: أحمد عبد الرّحمان: «هوسّرل وفلسفة الظّواهر»، مجلّة الفكر المعاصر، سبتمبر 1965، القاهرة، وعبد الفتّاح الديدي: «الاتّجاهات المعاصرة في الفلسفة»، الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر، القاهرة، 1966(وقد خصّص فيه قسما لعرض آراء هوسّرل وقارنتها ببعض أقطاب الفينومينولوجيا وخاصّة هيدغير ومرلوبونتي: أنظر خاصّة الصّفحات من ص.14 ـ ص.62)، وزكريا ابراهيم:

« دراسات في الفلسفة المعاصرة»، مكتبة مصر، القاهرة، 1968، (أنظرمثلا الباب السّابع بعنوان « الفلسفة الفينومينولوجيّة»، ص.ص.315_368). أمّا مرحلة السبعينيّات فهي مرحلة تميّزت بظهور عدد هامّ من الأعمال المُخصّصة لهوسّرل، وقد كانت زيارة سارتر إلى مصر(1967) حافزا مهمّا على زيادة الاهتمام العربي بالأعمال الفينومينولوجيّة، فقد بدأ حسن حنفي ترجمة أهمّ كتبه التي خصّصها لهوسّرل ونشره سنة1972، بعنوان: « تعالي الأنا موجود»، دار التنوير للطّباعة والنّشر، بيروت، 1982، بعد أن كتب مقالين عن هوسّرل، أولهما بعنوان: « الظّاهريات وأزمة العلوم الأوروبيّة»، مجلّة الفكر المعاصر، يناير1970(القاهرة)، وثانيهما « فينومينولوجيا الدّين عند هوسّرل»، مجلّة الفكر المعاصر، يوليو1970(القاهرة)، وهو مقال سيعمّقه لا حقا في أطروحة الدّكتورا باللّغة الفرنسيّة بعنوان: « L'exégèse de la phénoménomogie l'état actuelle de la méthode phénoménologique et son application au phénomène religieux», Dar al-fikr al-arabi, Le Cair, 1988. . وظهر في نفس السّنة مقال لأنطوان خوري بعنوان: « حول مقوّمات المنهج الفينومينولوجيّ»، مجلّة الفكر العربي المعاصر، 9/8، 1970، بيروت، أعيد نشره ضمن كتابه: « الفلسفة الظّاهراتيّة»، دار التنويرللطّباعة والنّشر،1983، ص.ص.116_179). وقد تضمّن ذلك الكتاب أيضا مقاله الذي نشره سنة 1971 بعنوان: « الكوجيتو بين هوسّرل وديكارت»، مجلّة الفكر العربي المعاصر، 16، 1971، بيروت (أنظر نفس المرجع،ص.ص.201_215). أمّا الدّراسات التي خُصّصت للفينومينولوجيا خلال الثمانينات والتسعينات فرغم أنّها تميّزت بظهور اهتمامات متزايد بأعلام فينومينولوجية أخرين وخاصّة هيدغير، فإنّ بعضها تميّز بالسّعي إلى الدّقة والتفصيل في تقديم مسائل الفكر الهوسّرلي(مثال كتاب سماح رافع محمّد:» الفينومينولوجيا عند هوسّرل»، دار الشؤون الثقافية بغداد، 1991. وما ورد في أطروحة محمود رجب: المنهج الظاهراتي في الفلسفة(رسالة دكتورا غير منشورة حسب علمنا)، ومقال اسماعيل مصدّق:» هوسّرل وأزمة الثّقافة الأوروبيّة»، ورد ضمن مجلّة مدارات فلسفيّة، 1، المغرب، 1998) وبعضها حاول أنّ يوسّع الاهتمام الفينومينولوجيّ بظواهر أخرى مثل الظّاهرة الجماليّة(مثال ذلك كتاب سعيد توفيق: « الخبرة الجمالية دراسة في فلسفة الجمال الظّاهراتيّة». المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1992).

3- Danner, Helmut.: Methoden geisteswissenschaftlicher Paedagogik. 3 Aufl. Muenchen-Basel 1994. S. 117.

4- Husserl عن Kron, W. F.: Wissenschaftstheorie für Pädagogen. Muenchen-Basel 1999. S . 193.

5 - Lamnek , Siegfried : Qualitative Sozialforschung . 4 Aufl. Weinheim, Basel 2005. S. 50.

6 - Lamnek , Siegfried : a.a. O. S. 51.

7 - Lamnek أورد هذا المثال في طبعة 1993

8 - Heidigger nach Danner, H : Ibid p 159.

9 - Gadamer , H .G : Die phaenomenologische Bewegung . Phil. Rundschau 11 , 1\2, 1-45, 1963\64. S. 39.

10 - Diemer nach Lamnek . S 56.